ورود وأشـواك ! ! . . .

تقـــــديم

يقولون : البلاغة الإيجاز . . . ونعم ما يقولون ، فمن طريق الإيجاز مع الإحكام يأتى الإعجاز ، وإننا لنطالع فى صحف العربية آيات بينات من جوامع الكلم فنراها فى إيجازها توحى بشتى الأفكار والمعانى، وكأنما الكلمة الوحيدة المحكمة درة تتألق وتتوهج ، فهى لا تزال تبعث بأشعتها وأضوائها متجددة متلاحقة ؛ وقد تطالعك العبارة الوجيزة أو البيت الفذ فيخيل إليك من الإيجاز مع البراعة فى التضمين والتلخيص والتركيز أن صوراً متتابعة تنفصل عنه فى روعة وبراعة ، ولكل صورة معناها ومغزاها ؛ أو أن رموزاً كثيرة مطوية تومض وتكاد تتبدى ، ثم تجمع من شملها لئلا ينهتك حجاب المعنى .

والأديب المتفنن قد يلجأ إلى هذا الطى والإيجاز لإظهار براعته، أو السمو بصناعته ، أوشغل الناس ببضاعته ، أو توقى الأحداث من بيئته. أو لغير ذلك من العلل والأسباب ؛ ومن واجب الذين يشغلون أنفسهم بالأدب وتاريخه وتحليله أن يعطوا ذلك اللون منه ماهو جدير به من بسط الحديث وتشقيق الكلام ؛ فى ذلك كشف لمساتير كثيرة من شئون الماضى ، وتعبيد لطرق البلاغة فى القول ، وتعليم لوسائل الاستهداء بهدى أمراء البيان ..

أحمد الشرباصى ـــ المدرس بالأزهر الشريف

فى الصباح الباكر المشرق الوضاح دفعتنى قوة قوية خفية إلى إدارة الحديث اليوم على النحو الذى سيدار وما استطعت حين دفعتنى تلك القوة إلا ما دفعتنى إليه أن أتأنى أو أتلبث لأعرف السر أو الهدف ، فقد كنت كالمسحور يدفعه الساحر ؛ ومن يدرى ، لعلنى بعد أن أستجيب لتلك القوة الخفية ، وأراجع ما أرادت من لون الحديث ، أدرك ما هناك من سر ، ويدركه معى من يريد!

يرى المطالع لمسرحية « مصرع كليوباترا » التى نسجت بردتها براعة الشاعر الفرد أحمد شوقى أن كليوباترا بعد أن أدبرت عنها الدنيا، وسدعليها اليأس منافذ الأمل ، وأصبحت نصائع سفلة الجواس ، وقضت عليها الحظوظ العواثر والجدود الخواسر بأن تذوق ذلة بعد عزة ، وضعفاً بعد قوة ، وسجنا بعد حرية ، تنحنى على زنبقة محصورة فى أصيص ، وتناجيها بتلك الأبيات الخوالد :

زنبقـــة فى الآنيـــه ... ضحيـــة الأوانيـــه
جئت عليهـــا غربة الأسـ ... ـر الأكف الجانيـــه
وبدلت من سعة الربـ ... ـوة ضيق الباطيـــه
يسقونهـــا من جرة ... بعـــد العيون الجاريه
يا جارتا شأنك لا ... يشبهـــه إلا شانيـــه
لم يبق من ملكى العريـ ... ـض غير دار خاويه
وكلنـــــا ذابلة ... عمـــا قليـــل ذاويه
زال النعـــيم وفرغـ ... ـنا من حيـــاة فانيـــه

هكذا ناجت السلطانة القديمة زهرتها حين انطفأ سراج رجائها ، أو هكذا أرادها شوقى أن تقول بتعبير أدق ، والشعر يطوى فى القليل من اللفظ الكثير من المعنى ، وكأنما كانت بنفس الشاعر أو نفس السلطانة لواعج ومشاعر

تتوثب لتستفيض فيحال بينها وبين ماتريد . ومن يدرى لعلها كانت تسير لو ترك لها المجال على النحو التالى من الحديث: هكذا الحياة حينما يقل فيها الخير ويشيع الشر، وحينما تنقلب فيها الأحياء إلى هوام ودواب ، وحينما ينسى الإنسان سيد المخلوقات مبادئه القويمة وأخلاقه الكريمة ومنزلته العظيمة، ويغدو بهيمة همها أن تأكل وتشرب ، وتثور وتغضب ، وتظلم وتجحف، هنا ترى القوى يستبد بالضعيف، والباغى يحيف على الهزيل ، وترى الأثرة وحب الذات والأنانية والشهوة الذاتية الشخصية العارمة تستبد بالناس، فلا يحفظون حقاً ، ولا يرعون عهداً ، ولا يصونون حرمة ، بل كل يقول : نفسى نفسى ، وبعدى يكون الطوفان !... وكل منهم يقبل أن يضحى بأهله ومواطنيه ، بل والدنيا جميعا فى سبيل رغبته وشهوته ولذته ، ولا تقتصر جناية هـذه الأنانية ولا يسيطر طاغوتها من الأقوياء على ضعفاء الناس فحسب ، بل تمتد إلى النبات والجماد ، وهذه مثلا زنبقة حزينة تراها سجينة فى آنية صغيرة بمكان محصور ، قد حرمت من انطلاق الحدود واستفاضة النور، وما جنى عليها هـذه الجناية الأثيمة إلا الأنانية الفاحشة والأثرة الباطشة ، فقد امتدت الأيدى الأثيمة والأكف المجرمة إلى تلك الزهرة الحرة الطليقة ، التى كانت تنمو وتتفتح وتفيض عطرها وشذاها هنا وهناك ، فانتزعتها من جوها الطليق ودنياها الرحيبة وكونها الوسيع، ثم قيدتها هنا بقيود الأسر والاستعباد ، فيالهـا من مسكينة تستحق الرثاء وتستدر البكاء :

زنبقـة فى الآنيـه ضحيـة الأنانيـه
جنت عليها غربة الأسـ ـر الأكف الجانيه !

لقد كانت تلك الزنبقة بالأمس تستطيل ، بعنقها ، وتفخر ببرعمها وتتعالى فى الفضاء بزهرتها ، وتأخذ مكانتها الحرة العالية فوق الربوة المرتفعة الواسعة، تتمتع بحريتها فتستفيد منها . ثم هى فى الوقت نفسه تنفع غيرها وتضفى من خيرها على سواها ، فجاءت الأيدى الآثمة فضنت عليها بهذه الحرية وتلك المكانة ، وحسدتها على ما هى فيه من نعمة وفضل ، كشأن الأقزام تماما حينما يغيظهم طول العمالقة من الرجال، فيفترون عليهم ويكذبون، ثم انتزعتها تلك الأيدى من ربوتها أو سجنتها فى تلك الباطية الصغيرة وذلك الإناء المحدود وذلك الإصيص الضيق ، وبذلك حرموها من ملك عريض كانت فيه ، ونعمة سابغة كانت تتقلب بينها ، تأخذ منها وتعطى ، وتنتفع بها وتنفع غيرها ، كما حرموها من ماء العيون الجارية وسلسبيل الجداول المتدفق ونمير الأنهار والقنوات ثم أرغموها على الشرب من جرة صغيرة ماؤها فيه معنى الضيق والسجن والاستعباد :

وبدلت من سعة الربـ ـوة ضيق الباطيـه
يسقونهـا من جرة بعـد العيون الجاريه

* * *

إيه أيتها الزهرة المسكينة، إننا شبيهتان ومتماثلتان، أنت جارتى فى ضيق وسجن ، نالك ما نالنى ، وألم بك ما ألم بى، ونحن غريبتان طريدتان هنا ، وكل غريب للغريب حبيب فكيف بهما حين تتحد ظروفهما وآلامهما وأحزانهما ، وليس ثمة من شأن يشبه شأنك إلا شأنى، فأنت قد حرمت من ملكك العريض الواسع ، وحوربت فى حريتك وانطلاقك ، وجىء بك إلى هنا لتذوق الحرمان بعـد الاستمتاع ، والخمول بعد النفع والانتفاع، والذلة والنزول بعد العزة والارتفاع ، وكذلك أنا يا صديقتى السجينة . . كنت بالأمس ملء السمع والبصر والفؤاد :

يموتون بى عشقاً ويشقون بالهوى
فكم من حيـاة فى يدى ومماتِ

ولكن الأقدار أرادتنى على الاختبار الشديد العسير، فذهب الأصدقاء وظهر الأعداء ، وتبدى الغدر وفر الوفاء ، وذهب عنى ملكى وسلطانى وحاشيتى وأتباعى وعشاقى وصولتى، وصرت أسيرة سجينة حقيرة ، ليس لها من ملكها ولا من سلطانها إلا هذه الدار الخاوية التى لا تغنى ولا تسمن من جوع ، فيالى من شقية بعد طول إسعاد :

تعثر حظى بعـد طول سلامة
وأقلع نجمى بعـد طول ثبات
ومن يمشى فى ورد الأمور وشوكها
يعـد الخطا أو يحسب العثرات

أرأيت أيتها الزنبقة الحزينة المسكينة كيف ساقت إليك الأقدار صديقة لا تشاركك فى المكان والزمان فحسب ، بل وتوافقك أيضاً فى الأحزان والأشجان وسوء المصير:

يا جارتا شـــانك لا يشبه إلا شـــانيه
لم يبق من ملكى العريـ ـض غير دار خاويه

إيه أيتها الزنبقة الأسيرة... لشد ما تثيرنى الذكرى وتقتلنى اللواعج . لقد كنت بالأمس ملء السمع والبصر والفواد ، تصاغ لى أكاليل المديح وطاقات الثناء ، ويركع على قدمى الشيوخ قبل الشباب ، وفيهم من يحيينى قائلا :

سلام السماوات فى مجدها على ربة التاج ذات الجلال
تمنيت رأسين لا واحداً إذا مست الأرض هام الرجال
أطأطىء رأساً لمجد النبو غ وأخفض رأساً لمجد الجمال

ولقد كانت الجنود لى ، والبنود من حولى ، أسمع الأناشيد وأنتشى منها فأردد :

هو الله نشيـــدى والمغنون جنـــودى
والمخـــاريق التى تخفـ ـق من بعد بنودى
ولديهـــا فارس ملـ ـثم شاكى الحـــديد
يتراءى فى عنان السـ ـما كالبرج المشيـــد
هو انطيوس ذخرى وطريفى وتليـــدى
أيهـــا البنتان هـــذى ليلة العيـــد السعيد
صليـــا مثل صلاتى واسجدا مثل سجودى

ولقد كنت غارقة فى النعيم ، آمر فأطاع ، وأشير فأجاب وأتحكم فلا يعارضنى أحد ، وأتمنى فيكون ما أتمناه ، أما اليوم فقد ضاع الملك وخمدت الإمارة ، وأبدلنى الدهر خفضاً بعد رفعة ، وذلا بعد عزة ، فأصبحت أسيرة وقد كان الملوك الصيد يمشون فى ركابى ، وسقانى الدهر كؤوس الصاب والعلقم ، وطالما تمنى الدهاقين أن يقاسمونى شراب لذاتى وخمر مسراتى !!.. آه ما أمر الذكرى على العزيز الذى ذل أيتها الزنبقة الحزينة .. ياذات البأساء مثلى ! .

* * *

لقد كان فيما مضى أيتها الزنبقة الحزينة سلطان عربى أموى ، اسمه سليمان بن عبد الملك ، وكان هذا السلطان وسيما جميلا فارع القامة منسق الأعضاء جذاب المنظر ، تتفجر منه ينابيع الشباب ، وتطلع هذا السلطان يوما إلى المرآة فأعجبه شكله وأسره جماله وازدهته وسامته فقال يخاطب نفسه : أنا الخليفة الشاب !.. ثم التفت إلى جارية له كأنه يسائلها عن رأيها فى شبابه وجماله ، فقرعت سمعه بالنذير الخفى الجلى ، وقالت تخاطبه :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى
غـــير أن لا بقـــاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب
كان فى الناس غير أنك فانى !

هذا هو العيب الذى لا عيب بعده يا أختاه ، وهذا هو النقص الذى لا يمكن تلافيه ، وهذا هو المصير المحتوم المنذر المذكر المحذر المؤدب ، الذى يجب أن نعتبر به كثيراً وأن نتدبره طويلا ، حتى نخفف من غلوائنا ، ونقلل من كبريائنا ، ونحسن الاستعداد لغدنا ، ونحاسب أنفسنا قبل أن يحاسبنا سوانا ، فذلك أنفع لنا وأجدر بنا !...

نحن زهرات فى هذه الحياة يا أختاه ، كل زهرة منها ستذبل وتذوى بعد قليل ، وسيزول عنا وعن سوانا أيضاً كل هذا النعيم ، وسنفرغ من هذه الدار العاجلة الفانية لنتلقى حياة الخلود والبقاء ، فإما الفردوس المقيم ، وإما عذاب الجحيم :

وكلنـــا ذابلة عمـــا قليل ذاويه
زال النعيم وفرغنا من حياة فانيـــه !

* * *

يا قارئى . . أفهمت ما يراد ؟.. قد تقول إنك لم تفهم ، فأقول لك : وأنا أيضاً لم أفهم ؛ فقد كنت كالمسحور يدفعه الساحر !... فمعذرة إليك ! .

أحمد الشرباصى
المدرس بالأزهر الشريف

◆ المآرب اليسيرة لا تسمى طموحاً ، ولكن الطموح هو الغايات الشاقة البعيدة ، فغامض وأنت والظلمة ، وحارب وأنت ملقى على الأرض ثم مت أشنع ميتة ، فإنك لن تموت أبداً .
(بيتشر)

* * *

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى
(المتنبى)